التلغراف البشري

قصة اجتماعية

لالكسندر غراكي البولوني

كان الكسندر غراكي من رجال اليراعة المشهود لهم بالبراعة في عالم الادب عموماً وبين قومه البولونيين خصوصاً . وُلد سنة ١٨٤٧ في بلدة قرب لوبلن من بولونيا وأكبَّ منذ حداثته على التصنيف وكتابة القصص المراد بها تهذيب النفوس وتثقيف الاذهان . واول قصة كتبها طبعت سنة ١٨٧٢ . وظلَّ من ذلك الوقت عاكفاً على الكتابة ومزاولة وضع القصص ، منتحلاً فيها اسم « پردس » الى حين وفاته سنة ١٩١٢ . ومما امتاز به انهُ كان كاتباً صائب الرأي ثاقب الذهن مع غزارة المادَّة وسعة الاطلاع وسهولة الابتكار والتوليد . وصفهُ بعضهم واجاد بقوله « انهُ كان راسخ اليقين بالانسانية والتمدن وبما للخير والنور من قوة الإصلاح والتجديد . ولجَّ في طلب تعميم التعليم وثاق اشدَّ التوقان الى تدريب مشيئة الشعب ونادى جهراً بانهُ يجب على كلِّ انسانٍ ان يجد في نفسهِ مبعث القوة ومصدر العزيمة والنشاط » وقصصهُ القصيرة موضوعة على الخصوص لوصف احوال الانسان المختلفة ومنها قصة التلغراف البشري الآتية :

القصة

زارت احدى الاميرات ملجأً للايتام . فعرض لها مشهد كان غاية في الندرة والغرابة . فانها رأت اربعة صبيان في عراك شديد آخذاً كلٌّ منهم بتلابيب الآخر ، وهم يوسعون بعضهم بعضاً لكماً ولطماً ، نزاعاً على كتابٍ ممزَّق بين ايديهم . فاستفظعت عملهم هذا وصاحت بهم صيحة الزجر والانتهار قائلةً : — « على مَ هذا الصراع ايها الاولاد الحمق ؟ فأقلُّ عقاب تستحقونهُ عليهِ ان تحرموا نصيبكم من الكعك وتوضعوا ركناً في الزاوية »

فاجابها واحد منهم ، معتذراً عن ذنبهِ ومشيراً الى صبيٍّ آخر :

— انهُ اغتصبني كتاب روبنصن كروزو

فقال ذاك : هذا كذب وبهتان ! انهُ هو الذي اغتصب الكتاب !

وقال صبيّ ثالث : لله ما اشد افتراءك ! أفلست انتَ الذي انتزع الكتاب مني ؟

وكانت ناظرة الملجإ قد بادرت الى تدارك الامر فوضعت حدًّا لصراعهم ونزاعهم. ثم خلت بالاميرة وقالت لها ان ما شاهدته اليوم في الملجإ كثير الحدوث ، مع اتخاذ كل ما يمكن اتخاذهُ من وسائل المراقبة التامة . وذلك لان الاولاد مولعون بالمطالعة ولعاً تفوق الوصف والملجأ في اشد احتياج الى الكتب

فهاج هذا النبأ في قلب الاميرة شرارة شعور غريب لم يخطر من قبل ببالها. لكنها رأت انّ مواظبتها على الافتكار فيهِ بحلبة الشاء والقلق فأغفلتهُ وبذلت جهدها في نسيانهِ الى ان زارت ذات يوم رئيس المستشارين وتناول الحديث بعض الشؤون الدينية واعمال البرّ والصدقة فتذكّرت حادثة ملجإ اليتامى وقصّتها عليهِ واعادت ما قالتهُ لها ناظرة الملجإ

ولما فرغت من كلامها طرأ على المستشار ما كان قد سبق فطرأ عليها من الشعور بامر غريب غير مألوف . فأعارهُ جانباً من عنايتهِ واهتمامهِ واستصوب ان يبعث بعض الكتب الى اولئك اليتامى . وتذكّر انهُ كان قد اشترى منذ وقت طويل طائفة كبيرة من الكتب لاولادهِ وهي الآن مودعة رفارف المكتبة وبعض الصناديق يغشاها الغبار وتعبث بها ايدي الدثور والبلاء . ولكنهُ لم يشأ ان يتحمل عناء البحث عنها ومشقة جمع شتاتها وارسالها الى الملجإ

وفي مساء ذلك اليوم زار المستشار صديقاً لهُ كان عنوان المروءة والادبية وكانت حياتهُ كلها وقفاً على إنشاء الملاجئ والمتصدقات ومساعدة طلاب البر والاحسان

فحادثتهُ الاميرة في ملجإ اليتامى وما قالتهُ لها ناظرة الملجإ وزاد على ذلك تحريضهُ بعزمهِ على ارسال بعض الكتب ووجوب التضافر على معونة اولئك اليتامى وتدعوزهم الادبي . فقال لهُ صديقهُ :

— الخطب سهلٌ الى الغاية ! غداً صباحاً اذهب الى مكتب جريدة « الكورير » واوجّه فيها نداء الى ذوي النجدة ليبادروا الى ارسال الكتب التي يحتاج اولئك اليتامى اليها

وفي صباح اليوم التالي خفَّ ذلك الاريحيّ الى غرفة مدير هذه الجريدة وحدثهُ بما سمعهُ من صديقهِ المستشار وألحّ عليهِ باسم الانسانية ان ينشر في جريدتهِ النداء المطلوب

واتفق لحسن الحظ أن الجريدة كانت يومئذٍ في حاجة شديدة الى خبر رائع طريف يستوقف نشرهُ انظار قرائها ويشغل ما كان باقياً فيها من افراخ فجلس يحررها ...

فورم — وانشأ مقالة رنانة في هذا الموضوع عنوانها : « جوع النفوس: بضعة اولاد في ملجإ يتامى — يعضّهم ناب الاحتياج الى الكتب — إن شوقهم إليها اعظم من ان يوصف — لاتنسوا نفوسهم الجائعة ! »

وبعد بضعة ايام ذهب المخبر الى مكتب الجريدة ومعهُ واحد من اصدقائه وكان استاذاً للفلسفة الطبيعية . فلقي عند الباب رجلاً رثّ الملبس وسخ اليدين وبجانبهِ فتاة صغيرة صفراء الوجه نحيلة الجسم وعليها اطمارٌ بالية تكاد لا تكفي لستر عريها وهي حاملة رزمة كتب قديمة . فسألهُ المخبر :

— ماذا تريد يا سيدي ؟

فرفع الرجل قبّعتهُ واجاب بخشية واحتشام

— جئنا يا سيدي بعض الكتب للاولاد ذوي النفوس الجائعة الذين كتبتَ عنهم. وحنت الفتاة الناحلة رأسها وصبغ الحياء محياها المغشى بصفرة فقر الدم . فتناول المخبر الكتب منها وسلمها الى خادم المكتب . وسأل أباها :

— ما اسمك يا سيدي ؟

فاجابهُ بحيرة وارتباك :

— لماذا تروم يا سيدي ان تعرف اسمي ؟

— لا بدّ لنا من معرفة اسم المتبرع بهذه الكتب لكي نعلنهُ في الجريدة

— لا ارى اقلّ ضرورة تدعو الى ذلك . فارجو ان تغضّ النظر عنهُ ولا تعيرهُ شيئاً من الاهتمام . اني رجل بائس ومسكين وواحد من عمال مصنع القبّعات . فلستُ بمستحقٍّ ان يعنى باسمي وينوّه باسمي

قال هذا وانطلق ذاهباً بابنتهِ الصغيرة النحيفة

وبعد ذهابهِ التفت المخبر الى صديقهِ الذي كان يمرأى ومسمع من كل ما حدث وقال لهُ :

— ان وقوع هذه الحادثة في اثناء وجودك معي — وانت استاذ الفلسفة الطبيعية — اخطر ببالي فكر المخاطبة التلغرافية بطريقة جديدة . فالمكتب الرئيسي لهذا التلغراف كان ملجأ اليتامى. والمكتب الذي تسلمهُ كان العامل في مصنع القبعات. فلما اشار الاول مستوعباً الانتباه لنداهُ الثاني من فورم. وعندما صرّح ذاك بحاجتهِ بادر هذا الى قضائها. اما نحن الباقين فكنا — كلنا — اعمدة التلغراف !

ترجمة : اسعد خليل داغر